

في محراب الصوم



❖ ضيافة الله

يقول الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة / 183).

عندما نستقبل هذا الشهر المبارك، فإن علينا أن نعد أنفسنا إعداداً روحياً للدخول في رحابه، حيث نشعر كما ورد في الخطبة المروية عن النبي (ص)، بأننا في ضيافة الله، فعلينا أن نحصل هذه الضيافة، التي هي مغفرة الله ورضوانه ورحمته ولطفه ورزقه، ما يجعل الإنسان قريباً من ربه بعقله وقلبه وروحه وحياته.

ونحن نحتاج كثيراً للحصول على هذا القرب من الله، لأننا عندما نفكر في وجودنا، نعي أن الله هو الذي منحنا هذا الوجود (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ) (فاطر / 2)؟ وإذا أردنا التفكير في حركتنا كلها في الحياة، فإننا ندرك أنها من نعم الله (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) (النحل / 53)، (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) (النحل / 18).

مقابلة الإحسان بالإساءة

إِنَّا نَعْرِفُ أَنَّ حَيَاتِنَا بِآلَائِهَا هِيَ مِنَ الْإِ، وفي رعايته، حتى إِنَّ إِيَّاهُ يُعْطِينَا نِعَمَهُ عَلَى رَغْمِ مَعَاصِينَا وَابْتِعَادِنَا عَمَّا فَرَضَ عَلَيْنَا مِنْ وَاجِبَاتٍ، وَهَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ (ع) فِي دَعَاءِ أَبِي حَمْزَةَ الثَّمَالِيِّ: «تَتَحَبَّبُ إِلَيْنَا بِالذِّعَمِ وَنَعَارِضُكَ بِالذَّنُوبِ...»، «خَيْرُكَ إِلَيْنَا نَازِلٌ، وَشَرُُّنَا إِلَيْكَ صَاعِدٌ»، فَإِنَّهُ يُعْطِينَا الْمَأْكُلَ وَالْمَشْرَبَ وَالْمَسْكَنَ، وَنَحْنُ نَغْتَابُ وَنَذِمُ وَنُزْنِي وَنَأْكُلُ الْأَمْوَالَ بِالْبَاطِلِ، وَنَفْتِنُ «وَلَمْ يَزَلْ مَلِكٌ كَرِيمٌ يَأْتِيكَ عَذَابٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِعَمَلٍ قَبِيحٍ»، إِنَّهَا الْمَلَائِكَةُ الَّتِي تُقَدِّمُ تَقْرِيرَهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى «لَا يَمْنَعُكَ ذَلِكَ مِنْ أَنْ تَحُوطِنَا بِذِيعَمِكَ، وَتَتَفَضَّلَ عَلَيْنَا بِآلَائِكَ، سُبْحَانَكَ مَا أَحْلَمَكَ وَأَعْظَمَكَ وَأَكْرَمَكَ، مَبْدَأٌ وَمَعِيدٌ».

محبة الله

لَقَدْ أَدْرَكْنَا أَنَّ كُلَّ مَا نَمْلِكُ فِي هَذَا الْكَوْنِ الرَّحِيبِ وَمَا عِنْدَنَا، هُوَ مِنَ اللَّهِ الْخَالِقِ (فَتَدَبَّرْكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) (المؤمنون/ 14)، فَكُلُّ مَا فِي الطَّبِيعَةِ مِنْ مَاءٍ وَهَوَاءٍ وَخَلَايَا وَأَجْهَازَةٍ دَاخِلِ الْجِسْمِ، كُلُّهَا خَلَقُ اللَّهِ، فَهَلْ يُمْكِنُنَا الْاِسْتِغْنَاءُ عَنْ مَقَوِّمَاتِ الْحَيَاةِ الْكُونِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ؟

نَحْنُ مُرْتَبِطُونَ بِاللَّهِ بِمَا لَمْ نُرْتَبِطْ بِأَحَدٍ فِي هَذَا الْوُجُودِ، مُرْتَبِطُونَ بِهِ بِكُلِّ وَجُودِنَا، حَتَّى فِي لَحْظَةٍ حُضُورِ الْأَجَلِ، وَسَوْفَ نَقِيفُ بَيْنَ يَدَيْهِ تَعَالَى، وَهَذَا الْوُقُوفُ يُوجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَقِيمَ الْعِلَاقَةَ مَعَ اللَّهِ وَنُوَثِّقَهَا، فَكَيْفَ نُوَثِّقُ عِلَاقَتَنَا بِمَنْ تُرْبِطُنَا الْمَصَالِحُ بِهِمْ، وَلَا نُوَثِّقَهَا بِاللَّهِ الَّذِي نَحْتَاجُ الْقُرْبَ مِنْهُ وَالْحُبَّ الْمَتَبَادِلَ مَعَهُ؟

وَهَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ الرَّسُولُ (ص)، حِينَ دَفَعَ الرَّايَةَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (ع) فِي مَعْرَكَةِ خَيْبَرَ، بَعْدَ أَنْ أَخْفَقَ الْجَمِيعُ: «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»، فَالْحُبُّ مُتَبَادِلٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، وَالسُّؤَالُ: كَيْفَ نَحْصِلُ عَلَى هَذَا الْحُبِّ؟

لَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ الْحَسَّاسَةَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلَا سِيَّامَا الْوَسِيلَةَ فِيهَا، وَهِيَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ (ص): (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيَيْنِ الَّتِي قَاتَلْتُمَا فِي بَنِي نَضِيرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْأُخْرَى كَافِرَةٌ) (آل عمران/ 13)، لِأَنَّ الرَّسُولَ (ص) بَيَّنَّ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، فَاتَّبَعَ الرَّسُولَ (ص) مُحِبَّةٌ، لِأَنَّهُ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ تَوَابُوا وَالَّذِينَ أَابُوا) (البقرة/ 222)، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ وَالْكَاذِبِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَإِنَّمَا يُحِبُّ الصَّادِقِينَ، كَمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُحِبُّ الْمَجْرِمِينَ أَوْ الظَّالِمِينَ؛ فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ تُحِبَّ وَتُظْلِمَ وَتُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ؟

حساب النفس

وَالظُّلْمُ لَيْسَ بِمَعْنَى الْحَاكِمِيَّةِ، وَإِنَّمَا الظُّلْمُ أَنْ تَأْخُذَ الْحَقَّ وَتَغْصِبَهُ مِمَّنْ لَهُ حَقٌّ عَلَيْكَ.. وَالظُّلْمُ يَكُونُ مِنْ خِلَالِ الْاِعْتِدَاءِ عَلَى النَّاسِ الضَّعِيفَاءِ أَمَامَكَ، وَهَذِهِ مَسَائِلُ تَحْتَاجُ إِلَى مَنَاقِشَةٍ وَحِسَابٍ مَعَ النَّفْسِ، لِأَنَّنَا مُشْغُولُونَ عَنْ أَنْفُسِنَا، فَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (ع): «مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ غَيْرِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ نَفْسِهِ»، النَّفْسُ الْأُمَّارَةُ بِالسُّوءِ، وَالَّتِي لَمْ يَفْكَرْ أَحَدُنَا أَنْ يَجْلِسَ مَعَهَا لِيَسْأَلَهَا عَنْ نِقَاطِ ضَعْفِهَا وَقَوِّمَتِهَا، وَلِيَتَسَاءَلَ مَعَهَا: كَمْ كَذْبَةٍ كَذَبْتُ؟ كَمْ غِيْبَةٍ؟ كَمْ ظُلْمٍ؟ كَمْ شَتِيمَةٍ؟ لِنَكُنْ أَصْدِقَاءَ أَنْفُسِنَا، فَصَدِيقُ مَنْ صَدَّقَ لَا مَنْ صَدَّقَكَ.. أَنْ نَنْهِيَ هَذِهِ النَّفُوسَ عَمَّا يَضُرُّهَا، وَنُرْشِدُهَا إِلَى مَا يَنْفَعُهَا: «يَا نَفْسُ، مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا يُفْسِدُ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَأَمَّا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ مِمَّا يَصْلِحُ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ».

فَلِنَفْكَرْ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَنَحْنُ فِي ضَيَافَةِ اللَّهِ، حَتَّى نَخْلُصَ فِي شَتَّى أُمُورِنَا، وَحِسَابِ النَّفْسِ لَيْسَ أَمْرًا سَهْلًا، إِنَّهُ يَتَحَرَّكُ فِي عَالَمِ الشَّهْوَةِ وَالْمَزَاجِ (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) (النَّازِعَاتُ/ 40-41)، فَإِلَّا نَحْنُ مُدْعَوٌ لِفَهْمِ نَفْسِهِ وَحِسَابِهَا وَمَحَاكِمَتِهَا وَمَجَاهَدَتِهَا، «اجْعَلْ نَفْسَكَ عَدُوًّا تَجَاهِدُهَا، لِأَنَّهَا أُمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي».

المصدر: كتاب تقوى الصوم